المسار التاريخي

نبت «داعش» من رحم «القاعدة» لكنه سرعان ما انفصل عنها، وأخذ طريقه المغاير في الدرجة عن كل سابقيه من التنظيمات الإرهابية التي تستعمل الإسلام أيديولوجيا مسلحة.

فداعش تعود في أساسها إلى واحد من البارزين في القاعدة، وهو أبو مصعب الزرقاوي، الذي كان ينظر إليه أسامة بن لادن على أنه أكثر تزمتا من المطلوب، لاسيما في الأمور العقدية، ومن هنا لم يعد، في البداية، يمثل قيمة كبرى بالنسبة له.

لكن «سيف العدل»، وهو واحد من مخططي القاعدة، أقنع ابن لادن والرجل الثاني معه أيمن الظواهري بأن التعاون مع الزرقاوي مفيدا، لمد خطوط أكثر للتنظيم في بلاد الشام، ولذا أُنشيء معسكر تدريب في هيرات بأفغانستان يديره الزرقاوي، الذي بدا في ذلك الوقت طامحا إلى ما هو أبعد من إدارة معسكر.

وبعد أن عاد الزرقاوي من أفغانستان إلى الأردن، حيث مسقط رأسه، في عام ١٩٩٩، بدأ رحلة أخرى من الترويج

لأفكار المنظر الجهادي أبو محمد المقدسي، التي تكفر الحكام، وتنزع شرعيتهم عنهم وفق ذرائع دينية، وقاده هذا وصاحب الأفكار إلى السجن.

وبعد خروجه عاد الزرقاوي إلى أفغانستان، لكن لم يلبث أن فر منها إلى العراق بعد ضرب الأمريكان لحركة طالبان عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، مستفيدا من اتصالات قديمة أقامها مع قيادات جماعة أنصار الإسلام الكردية التي لها وجود في شمال العراق.

وحين احتل الأمريكان العراق وجد الزرقاوي الفرصة سانحة ليصنع مجده الذاتي بعيدا عن «القاعدة» فأسس عام ٢٠٠٣ تنظيم «التوحيد والجهاد» الذي أعلن عن نفسه في إبريل ٢٠٠٤، لكنه لم يلبث أن انضم بعد ستة شهور إلى القاعدة ليصبح «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين».

وفي ٢٠٠٦ أسس الزرقاوي «مجلس شورى المجاهدين في العراق» حتى يتسنى له ضم الجماعات السنية المقاتلة التي نشأت بعد حل حزب البعث، وكان بعضها على صلة قوية بالبعثيين قبل احتلال العراق بسنوات في إطار استغلال صدام حسين عداء هذه الجماعات للولايات المتحدة، وفق التصور الذي يقول: «عدو عدوي صديقي». وهناك معلومات عن تردد ضباط من المخابرات العراقية على أفغانستان غير مرة للقاء قادة القاعدة عام منذ ١٩٩٩.

ورغم أن الزرقاوي انضوى تحت لواء أسامة بن لادن إلا أنه كان مشغولا طيلة الوقت بإقامة مجتمع راسخ على الأرض، وليس مجرد تنظيم مطارد مثل الذي انتهي حال القاعدة، وهي فكرة لم يتخل عنها أتباعه بعد مقتله في يونيو ٢٠٠٦، إذ سرعان ما عمل أبو حمزة المهاجر على تقوية تحالفاته المحلية، رغم أنه قال لابن لادن في أحد تصريحاته: «نحن رهن إشارتك ورهن أمرك». فحين أعلن عن قيام «دولة العراق الإسلامية» بقيادة أبو عمر البغدادي، منحها المهاجر فرصة السيطرة على من كانوا تحت يديه من القاعديين، وكان عددهم يصل إلى ١٢ ألف مقاتل، وقال لأبي عمر: «أنا هنا أضعهم تحت أمرتك، وقيادتك المباشرة».

وأراد معلنو هذه الدولة أن تكون حقيقة لا مجرد افتراض أو وهم، فسارعوا إلى تشكيل حكومة مكونة من عشرة وزراء في إبريل ٢٠٠٧، وهي خطوة سبق أن رفض تنظيم القاعدة مباركتها قبل موت الزرقاوي، وعاد إلى رفضها، بل اعتبرها خطأ سياسيا جسيما، ووصف «أبو عمر» و«أبو حمزة» بأنهما شخصان متطرفان يفتقران إلى الحكمة، ويثيران الاشمئزاز. وظل هذا موقف ابن لادن والظواهري منهما إلى أن قتلتهما القوات الأمريكية في إبريل ٢٠١٠.

وتولى أبو بكر البغدادي قيادة «دولة العراق الإسلامية»، التي لم ترق لتنظيم القاعدة فأعلن التبرؤ منها، لينفرد

البغدادي في إبريل ٢٠١٣ بإعلان قيام «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، بعد اندماج بين جماعته و«جبهة النصرة» التي ظهرت في سوريا مطلع ٢٠١٢ للقتال ضد بشار الأسد، وساعد مناوئيه في تنظيمها وتمويلها بالمال وإمدادها بالسلاح والمقاتلين. لكن قائد الجبهة محمد الجولاني رفض هذا الدمج وأعلن تمسكه بالولاء للظواهري، ليعلن الانفصال عن «القاعدة» وتحويل «جبهة النصرة» في ٢٨ يوليو ٢٠١٦ إلى «جبهة فتح الشام».

هذا التطور التاريخي لـ «داعش» يبين عدة أمور مهمة، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١ ـ نشأت داعش وتطورت ضمن سياق اجتماعي وظرف تاريخي أثَّر عليها تأثيرا واضحا، بل إن هذا العامل هو الأساس في تطور ذلك التنظيم، الذي استفاد من اضطراب الأوضاع في العراق بعد الغزو الأمريكي، وحل الجيش العراقي وحزب البعث وظهور الخلاف الطائفي بين السنة والشيعة، والعرقي بين العرب والأكراد.

واستفاد داعش من الاضطراب العميق الذي ترتب على تحول الثورة السورية إلى حرب أهلية، ثم مواجهة طائفية طاحنة بدأت بالشحن الإعلامي وانتهت بالتقاتل على الأرض، فصراع إقليمي ودولي على النفوذ والمصالح المادية فتح كل الجبهات والإمكانيات على القتال، استفاد داعش

من تناقضاته إلى حد واسع وعميق، فالذين عملوا على إسقاط نظام الأسد، ساعدوا كل الحركات والأطراف والجماعات والميليشيات التي تقاتل ضده، ومنها داعش.

٢ ـ يعيد داعش في أول مراحله إلى الأذهان ظاهرة «الأفغان العرب» الذين رفضت بلدانهم استقبالهم بعد مشاركتهم، بموافقتها، في القتال ضد الاتحاد السوفيتي المنهار فساحوا في الأرض، حيث ذهب الكثيرون منهم إلى الصومال واليمن والسودان ودول آسيا الوسطى الإسلامية.

فالنواة الأساسية تكونت من مقاتلين هاجروا إلى العراق بعد سقوط طالبان، وكونوا تنظيما يزيد مقاتلوه عن اثني عشر ألفا، شكلوا بداية قوية لجيش «دولة العراق الإسلامية» التي مثلت دفعة قوية نحو إنشاء ما تسمى «الدولة الإسلامية في العراق والشام».

٣ ـ ينطبق على داعش القانون الذي جرى على التنظيمات الجهادية منذ سبعينيات القرن العشرين وحتى الآن، وهو قدرته على إحلال قيادة جديدة محل قيادة قديمة قُتلت أو انشقت. ومن المؤكد أن الخطر الداهم الذي يحدق بتلك التنظيمات، إلى جانب طبيعتها المعسكرة، وكذلك التصورات الدينية التي تفرض الإمارة وطاعة القيادة، تساعدها على عملية الإحلال تلك بسهولة، وفي زمن أسرع، مما يتخذه الأمر في الجماعات والحركات الاجتماعية المدنية، أو حتى

الجماعات الدينية المسيسة التي تعمل بشكل علني، أو الجمعيات الدينية الخيرية.

٤ ـ بالطبع لا يعد داعش «دولة» بالمعنى الشرعي والقانوني المتعارف عليه وفق القانون الدولي، وتصورات وإدراكات وتاريخ الدول، ولا عند الأغلبية الكاسحة من خبراء العلوم السياسية والحركات الدينية. لكن الدواعش لا يشغلهم عدم اعتراف كل هؤلاء بهم، ولا يطمحون أو يتطلعون أو حتى يسعون إلى أي اعتراف بـ «دولتهم»، وينظرون بسخرية إلى تصريحات الرئيس الأمريكي باراك أوباما وهو يصفهم بأنهم «ليسوا دولة إنما مجرد منظمة إرهابية».

فمن قبل كانت أتباع الجماعات المتطرفة والإرهابية يردون على من يصفونهم بـ«الإرهابيين» بأنهم لا يغضبهم هذا، لأن إحدى وسائلهم الأساسية هي إرهاب إعدائهم، وكانوا دوما يستشهدون مغرضين بالآية القرآنية التي تقول: «**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**»، مفترضين أنهم أنصار الله وأن من يناوئونهم أعداء الله. وتنظيم داعش ليس استثناء من هذا التصور المغلوط، فهو متأثر بالطبع بالأفكار التي سبقه إليها الكثير من التنظيمات المتطرفة والإرهابية.

كما أن «داعش» شأنه شأن «القاعدة» يقسم العالم إلى فسطاطين، عطفا على التصور الفقهي القديم الذي وضع أيام توسع الإمبراطورية الإسلامية وسمي بـ «الفتوحات»، ومن ثم فهو يرى أن أغلب الدول الموجودة في العالم ليس لها شرعية، وبذا فإن الإنضمام إلي «الأمم المتحدة» ليس مقصدا لداعش، إنما هو يريد أن يكون «الكيان» الذي أعلنه فوق أرض اقتطعها من دولتين شرعيتين عضوتين في المنظمات الدولية نقطة انطلاق لفتوحات جديدة بغية قيام «خلافة إسلامية»، يتوهم داعش أنها لن تقتصر على حدود العالم الإسلامي القديم، بل ستتعداه إلى مناطق جغرافية أوسع.

ويختلف داعش في هذا عن «المنظمة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين» المعروفة أمنيا وإعلاميا باسم «القاعدة» والتي نشأت على أرض غريبة عام ١٩٩٨، فكان قادتها يدركون أنه ليس بمكنتهم أن يحتلوا أرضا ويعلنوا عليها دولة أو إمارة لها. كما يختلف عن حركة طالبان التي سعت إلى السيطرة على كافة ربوع إفغانستان، وتقاتل الآن من أجل استعادتها بعد أن أزيحت عن الحكم إثر الضربة الأمريكية عام ٢٠٠١.

٥ ـ لا يفتقد داعش العمل المؤسسي، وإلا ما استمر كل هذا الوقت رغم الضربات المتلاحقة التي تلقاها، فهو بحكم

إعلانه دولة، انشغل بمجالات حياتية معقدة، على الأقل لخدمة السكان الذي يقعون تحت حكمه، كما أن الأزمات المستمرة التي يعايشها فرضت هذا، علاوة على خبرات من انضموا إليه، أو أجهزة المخابرات التي ساهمت في صناعته وترعاه.

obeikan.com